تاريخ موجز لنهضة مصر الزراعية الحديثة

بقلم بارسى باسيلى بك

مدير عام مصلحة الاقتصاد الزراعى والتشريع

كانت نهضة الزراعة فى مصر فى جميع العهود وثيقة الارتباط بنظام الحكم السائد فيها ، ذلك لأن الزراعة عندنا تعتمد على الرى الصناعى ، وإقبال الحاصلات أو إدبارها يتوقف إلى حد بعيد على العدالة فى توزيع مياه الرى ، وأمن الزارع في اجتناء ثمار جهده .

من عهد محمد على إلى اسماعيل :

كان الهدف الأول لمحمد على القضاء على الفوضى التى كانت سائدة فى البلاد قبل توليه الحكم وتعزيز ملكه . لهذا كانت الزراعة فى مقدمة ماعالجه محمد على ليزداد دخل البلاد ويتوافر المال اللازم لمختلف المشروعات التى اعتزم إقامتها .

ولما قضى محمد على باشا على المماليك آلت اليه زراعة الأراضى التى كانت تحت يدهم . ثم أبطل نظام الالتزامات فى جباية أموال الأطيان ، وكان هذا النظام يشبه نظام الاقطاعات الذى كان سائدا فى البلاد الأجنبية ، فكانت للملتزم أرض « أوسية » تزرع لحسابه الخاص وغالبا بطريق السخرة ، وكان الملتزم يوزع باقى الأراضى التى يشرف على تحصيل أموالها للحكومة على الزراع مقابل ما يجبى منهم كضرائب . وبإبطال هذا النظام آلت زراعة جميع أراضى القطر تقريبا إلى محمد على رأسا ، فكان يعين « الخولا » الذين يشرفون على استثمارها ، ويصدر المنشورات فى طرق خدمة الحاصلات ، ويعين مساحة ما يزرع من كل منها ، وكانت الحاصلات تودع فى مخازن حكومية بعد أن يصرف للزارع نصيب منها عينا أو نقدا .

وقد وجد « جومل » بحديقة محوبك بشبرا نباتا من القطن استرعى نظره ، فعمل على اكثاره فى مساحة من الأرض بالمطرية بجوار المسلة القائمة فيها ، وعرض

على الوالى مشروع التوسع فى زراعة هذا القطن ، فأخذ محمد على بهذا الرأى بعد أن استبان فائدته ، وكان ذلك فاتحة الخير لمصر بما نالته من الشهرة فى إنتاج القطن . وقد استدعت زراعة القطن تنظيم الرى الصيفى ، فعمل على تقوية جسور النيـــل وتعميق ترع الرى فى الوجه البحرى . ولما تبينت كلفة ذلك شيد القناطر الخيرية لرفع مستوى الماء فى هذه الترع ، كما حفر الترعة المحمودية وترعا أخرى .

وقد أدخل محمد على زراعة النيلة للحاجة اليها فى الصباغة ، كما أدخل زراعـة القنب والخشخاش ، وكان يستدعى للزراعات الجديدة عمالا من البلاد التى تزرعهـا لإرشاد زراع القطر إلى أصول خدمتها .

واهتم محمد على أيضا بزراعة الأشجار الخشبية لحاجته اليها فى صناعة السفن بصفة خاصة ، كما اهتم بزراعة بساتين الفاكهة والزينة وإنشاء المتنزهات ، وكانت حديقة قصره بشبرا تحوى مجموعة نادرة من النباتات ، ويقال إن أول شجرة من أشجار المانجو زرعت فى هذه الحديقة . وقـد مد الطريق إلى هذا القصر من القاهرة ، وزرعت على جانبيه أشجار الجميز واللبخ بالتناوب ، وكان هذا الطريق من أجمل شوارع القاهرة للنزهة فى أوائل هذا القرن .

وقد اهتم محمد على أيضا بتربية دودة القز ، وبتربية الأغنام لحاجة مصانع الطرابيش التى أنشأها بفوة لصوفها . وقد استدعى إخصائيا للعمل فى تربية هـذه الأغنام . وهى نواة النوع الذى اشتهر إلى يومنا هذا باسم « الرحمانى » ، وكانت الأغنام تنتقل من بلدة إلى أخرى تبعا لمـا يتوافر لها من مرعى .

وقد كان محمد على شغوفا بنهوض الزراعة ، فأوفد البعثات المختلفـة لتلقى العلوم الزراعية فى أوربا ، كما استدعى الاخصائيين الأجانب للعمل فى توليد النباتات وتربية الحيوان ، وادخال الآلات الزراعية الحديثة ، ولكن الأهالى وحكام الأقاليم لم تكن معاونتهم صادقة فى إنجاح مساعيه فى ذلك رغم مؤازرته .

وعنى محمد على بالتعليم الزراعى ، فأنشأ مدرسة زراعية ببيلا ، غير أن هـــذه المدرسة فشلت للاختلاف بين رئيسها الفرنسى ، وأحد مدرسيها الأرمنى ، كما أن أهالى المنطقة كانوا يهزأون بتجاربها وتعاليمها ، فاضطر محمد على إلى نقلها لمصر ووضعها تحت إشراف كلوت بك .

وكان اهتمام محمد على بالصناعة لا يقل عن اهتمامه بالزراعة ، وكان الكثير من الصناعات التى أسسها يتصل بالزراعة ، فقد أنشأ ١٨ معملا لغزل القطن ونسجه ، ومعملا لصناعة الجوخ .

وكان ابراهيم باشا كأبيه ، ولوعاً بإدخال النباتات الأجنبية إلى مصر وأقلمتها ، ولكن عهده لم يطل ، وكان عهد عباس الأول فترة سكون ، ثم تولى الحكم بعده سعيد باشا ، ومن مآثره على الزراعة إصدار قانون يعطي للزراع حق ملكية الأرض بعد أن كانت الملكية للوالى .

من عهد اسماعيل إلى فؤاد الأول :

جنت البلاد فى عهد اسماعيل ثمرة النواة التى وضعها محمد على بتوسيع زراعة القطن ، إذ أن الحرب المدنية الأميركية ، وجهت أنظار العالم إلى قطن مصر ، فارتفعت أسعاره ، فتوافر بذلك المال لعدة مشروعات جسيمة ، فحفر فى عهد اسماعيل أكثر من مائتى ترعة ، شيد عليها ما يقرب من خمسمائة قنطرة ، وأنشئت آلاف الأميال من الطرق الزراعية ، وأصلح مالا يقل عن مليون ونصف المليون من الأرض الزراعية .

وقد نشر اسماعيل زراعة القصب فى الوجه القبلى . وفى عهده استعمل البخار لأول مرة فى خدمة الأرض . وقد اعتنى اسماعيل بزراعة بساتين الفاكهة والمتنزهات . وما زالت بين يدينا معالم ذلك فى حديقة الجبلاية بالجزيرة ، وحديقة الحيوان والأورمان بالجيزة ، وحديقة الأزبكية وغيرها .

وفى أواخر حكم اسماعيل وقعت البلاد فى أزمات مالية وسياسية ، ولهذا لم تتم فى عهد توفيق إلا إصلاحات محدودة فى الرى والزراعة .

وقد تمت مشروعات جسيمة للرى فى عهد الخديوى عباس الثانى ، ففى سنة ١٩٠٢ تم تشييد خزان أسوان . وشيدت قناطر أسيوط وزفتى . وفى عام ١٩٠٦ بدأ العمل فى إقامة قناطر إسنا . وأجريت التعلية الأولى لخزان أسوان من عام ١٩٠٧ إلى ١٩١٢ فتيسر بهذه المشروعات تحويل أغلب أراضى الحياض بالوجه القبلى إلى الرى المستديم فاتسعت بذلك زراعة القطن بالوجه القبلى ، وارتفعت أثمان أراضيه .

وفى عهد الخديوى عباس مسحت أراضى القطر ، ووضعت لها الخرائط المفصلة وربطت عليها الضرائب على أساس عادل ، وأبطلت السخرة فيما عدا أعمال وقاية النيل من الطغيان ، فأدى ذلك إلى استقرار الزراعة ورخائها ، وقد توسعت البلاد فى إنشاء السكك الحديدية والطرق الزراعيـــة ونحوها مما يفيد فى نقل الحاصلات وعمران الريف .

وفى عهده أنشئت الجمعية الزراعية فأدت للزراعة المصرية خدمات جليلة ببحوثها وتجاربها ، وباستيرادها الأسمدة الكيماوية ونشر استعمالها ، كما أنها أقامت المعارض ، ونشرت البحوث الزراعية . وفى هذا العهد أيضا زادت العناية بالتعليم الزراعى فرفعت مدرسة الزراعة بالجيزة إلى مصاف المدارس العليا ، وعدل برنامج دراستها بما يتفق مع ذلك . وأنشئت مدارس زراعية متوسطة ومدارس حقول ، كما أنشئت مصلحة الزراعة عام ١٩١٠ ، وحولت إلى وزارة عام ١٩١٣ .

وتولى الحكم السلطان حسين الذى كان يلقب بأبى الفلاح ، لاهتمامه طوال حياته بالزراعة ، واضطلاعه بإنشاء الجمعية الزراعية ورياستها ، غير أن الحرب حالت دون الانفاق على مشروعات جسيمة للرى والصرف واستصلاح الأرض ، فلم يتم من ذلك إلا إنشاء محطة لرفع المياه بأبى المنجا ، لرى مساحات من أراضى القليوبية كان عسيرا ريها ، واقتصر الأمر على دراسة المشروعات التى تكفل للبلاد تحسين الرى والصرف .

عهد فؤاد الأول :

يعد عصر فؤاد الأول فاتحة عهد تطبيق نتائج البحوث الفنية فى الزراعة . قد كان رحمه الله أول المؤمنين بالعلم ، فعمل على تشجيع مؤسساته قبل أن تسند إليه مقاليد الأمور ، ولما نضج بعض هذه البحوث ، كان أول الآخذين بها فى مزارعه الخاصة فأصبحت مثالا يحتذى فيه تطبيق أساليب الزراعة . وكان يعتنى شخصيا بتشجيع الباحثين وبإرشادهم ، وقد أرسلت بعثات إلى بلاد الشرق لاستجلاب أصناف جديدة من المزروعات بإرشاداته الخاصة .

وفى عهده السعيد ظهر تحسن واضح فى مرتبة القطن المصرى وغلته نتيجة للجهود

الفنية التى بذلت فى هذا السبيل ، وصدرت التشريعات التى تكفل مراقبة البذور المستعملة فى الزراعة ، ومنع خلط الأقطان ، ومراقبة الاتجار فى المخصبات منعاً للغش فيها . وفرض التلقيح الإجبارى للماشية ضد الطاعون البقرى وقاية لها من هذا المرض الوبيل ، كما صدر أول تشريع للتعاون ، وبدىء بتشريعياته تحت إشراف الحكومة وعنى بتصفية الديون العقارية التى تراكمت على بعض الزراع فأصبحت عبئا ثقيلا يحد من تقدم الانتاج ، وأنشىء عام ١٩٣١ بنك التسليف الزراعى لاقراض الزراع ما يلزمهم لقضاء شئونهم الزراعية بشروط مقبولة ، كما خفضت الضرائب العقارية ورسوم نقل الحاصلات بالسكك الحديدية ، واتخذت إجراءات جمركية لحماية أسعار الحاصلات الرئيسية ، واتخذت الحكومة مختلف الوسائل لترويج الحاصلات المصرية فى البلاد الأجنبية كما فرضت رقابتها على أسواق الحبوب بروض الفرج وأثر النبى وسوق الاسكندرية وسوق الأرز برشيد والأسواق العامة للفاكهة والخضر ، وعملت على تنظيم التسويق ونشر أسعار الحاصلات . كذلك بدأت الحكومة تجاربها فى مراقبة بعض الصادرات الزراعية محافظة على سمعتها فى الخارج للاحتفاظ بأسواقها ونفذت الرقابة على صادرات البيض والبصل ، وعملت على تشجيع التصدير بإعانات مالية ، وبتنظيم عمليات الفرز والتعبئة ، كما بدأت فى البلاد نهضة صناعية كان لها أثر واضح فى ترويج المنتوجات الزراعية .

وقد كان المغفور له فؤاد الأول شغوفا بنهضة الواحات ، والتوسع الزراعى فى المناطق الصحراوية ، فجاب بنفسه هذه النواحى ، وعمل على تنفيذ المشروعات فى حفر الآبار فيها ، وإجراء التجارب فى استثمار هذه المناطق ، وتوسيع عمرانها ، فانتشرت زراعة الزيتون فى الصحراء الغربية ، وأقيمت معاصر لاستخراج زيته ، وأجريت تجارب ناجحة فى زراعة اللوز وغيره من الفواكه والأعشاب الطبية والاقتصادية التى لاتحتاج إلى الرى الثقيل . وفى عهده بدأت زراعة الكمثرى تبشر بالنجاح ، بعد أن كان نجاحها مشكوكا فيه لأهمية الصقيع فى إنضاج الثمار ، وقد توسع الزراع فى زراعة أشجار الفاكهة والخضر بصفة عامة ، فزادت مساحتها زيادة مطردة .

ومن مآثر فؤاد الأول على الزراعة إنشاء متحف فؤاد الأول الزراعى .

عهد فاروق الاول :

يمتاز هذا العهد بالنهضة الاجتماعية والاقتصادية التى أقدمت عليها البلاد ، فقد أخذت الحكومات المتتالية تعنى بعلاج الفقر والجهل والمرض ، ووضعت البرامج لذلك ، وأصاب الفلاح أكبر نصيب من العناية ، فقد أنشئت المستشفيات القروية والوحدات الصحية لتحسين الحالة الصحية فى الريف ، وأنشئت الوحدات الاجتماعية للنهوض بالحالة الاجتماعية والاقتصادية فيه ، كما أنشئت المجموعات الزراعية لتحسين الانتاج الزراعى والحيوانى . وقد أخذ كبار الزراع يعنون بصغارهم ، ودب فى الريف نشاط نحو رفع مجتمعه ، وأقبل الكثيرون من كبار الملاك على سكنى الريف بين حين وآخر ، وبنوا لهم القصور ، وتبارزوا فى تنظيم مزارعهم وفيما شيدوه من عزب ومخازن ، وما إلى ذلك ، ولا يسع من يسير على امتداد الترعة المنصورية إلا أن يلمس هذه المباراة واضحة ، ويدهش للتقدم الذى أصاب هذه المنطقة ، وقد كانت رمالا لا تستزرع ، فأصبحت ممتازة فى زراعة البساتين ، وخاصة بساتين المانجو .

وقد زاد فى السنوات الأخيرة الاقبال على استخدام الآلات الزراعية الحديثة خصوصاً آلات رفع المياه للرى والصرف ، أو لحرث الأرض ، ولولا قيود العملة الصعبة لسكانت هذه الزيادة أوضح أثراً .

وقد اقتنع الكثير من الزراع بفائدة مقاومة آفات الزرع طبقا لإرشادات الفنيين فى ذلك ، فأقبلوا على إجراء الكثير من هذه العلاجات بأنفسهم أو بمعاونة وزارة الزراعة ، وخاصة فيما يتعلق بآفات الفاكهة والخضر والمقاثي . وأخذ هذا النشاط يدب فى مقاومة آفات الحقل بعد أن أجريت تجارب واسعة فى مقاومة دودة ورق القطن بالكيمائيات وبالطائرات العمودية « هليكوبتر » لموسم ١٩٥٠ وقد سنت الحكومة قانونا يجعل مقاومة بعض الآفات إجبارياً ، للحد من انتشارها ، كما تقدمت وسائل الرقابة على الواردات الزراعية لمنع دخول آفات جديدة اليه ، وتطهير الوسائل التى يرى الافراج عنها بعد هذا التطهير ، وأقيمت المنشئات اللازمة لإجراء ذلك فى الموانى المصرية .

وفى حكمه الميمون زاد الاقبال على زراعة الفاكهة والخضر ، فاتسعت زراعة البطاطس بصفة خاصة ، وبلغت مساحة بساتين الفاكهة ٨٦٦١٧ فدانا عام ١٩٥٠ ، ولم تكن تتجاوز ٢٠٠٠٠٠ فى أوائل هذا القرن . وكانت غالبية الزيادة فى زراعة المانجو والموز والعنب ، كذلك أخذت زراعة الأصناف الممتازة من التفاح تبشر بنجاح فى جهة رفح ، وارتقت بصفة عامة الفواكه التي تعرض من منتوجات البساتين المصرية فى الأسواق وأصبح البعض منها يبز فى جودته ما تنتجه أرقى البلاد فى فلاحـــة البساتين . وقد استطاعت مصر أن تكفى حاجتها من الفواكه والخضر ، فنقصت وارداتها منها إلى حد كبير . وقد نجح تصدير الخضر والفواكه المصرية إلى الأسواق الأجنبية ، غير أن حاجة البلاد التموينية قد حدت من ذلك ، كذلك توسعت البلاد فى زراعة الورد وأزهار القطف ، كما يدل على ذلك انتشار حوانيت بيعها فى القاهرة والاسكندرية .

وفى عهد الفاروق بدأ نشاط جديد فى ناحية الانتاج الحيوانى ، فقد أخذت وزارة الزراعة فى أواخر سنة ١٩٣٩ تعنى بتربية الجواميس وتوليد عترات ممتازة من الماشية والدواجن وتوصلت فى ذلك إلى نتائج باهرة ، كما عملت على انتفاع الزراع بذلك بايجاد طلائق ممتازة لتلقيح حيواناتهم .

ولم تلق زراعة أشجار الغابات العناية التى وجدتها فى عهد الملك فاروق ، فقد غرس بيده الكريمة أول شجرة فى غابة فاروق بالفيوم ، وتلا ذلك التوسع فى غرس الأشجار الخشبية ، وصدر قانون يشجع وينظم زراعتها على حواف الترع والطرق . وزرعت الحكومة مساحات واسعة منها فى الجبل الأصفر والجميزة والسرو وغابة فاروق بالفيوم ، وغابة قنا .

وقد عنى مولانا الملك عناية خاصة بتعمير الصحراوات ، فجاب بنفسه فى أرجائها متفقداً شئونها ، عاطفا على ساكنيها ، محتملا فى هذا السبيل مشقة السفر فى الطرق الوعرة ، غير حافل بأخطار ذلك . وأنشئت محطات للتجارب الزراعية بهذه الجهات لاستنبات ما يصلح غرسه فى الاراضى الصحراوية من أصناف الفاكهة والنباتات الطبيعية والاقتصادية المختلفة . كما عنى بتوفير الرى من الآبار الرومانية القديمة فى منطقة مريوط ، ودرست مشروعات لتوفير الرى من مياه السيول بصحراء شبه جزيرة سيناء .

وقد عنيت وزارة الزراعة بتوزيع شتلات الزيتون مجانا على أهالى الصحراء ، وإقامة المصانع لاستخراج الزيت وتجفيف البلح وتعبئته . كما أن زراعة التين انتشرت فى السنوات الأخيرة بمنطقة مريوط وأدرت على زارعيها أرباحا وافرة .

وللصناعات المرتبطة بمحاصلاتنا الزراعية أهمية كبرى فى اقتصادنا القومى ، وليس هذا مجال الكلام عن الرقى الذى أحرزته صناعة النسيج والقطن الطبى وعمل الدوبارة وما إلى ذلك ، ولكننا من الوجهة الزراعية البحتة نذكر أن الصناعات اللبنية خطت فى السنوات الأخيرة خطوات بارزة وخاصة فيما يختص بصناعة الجبون . فقد أمكن إنتاج عدة أصناف أجنبية كان القطر يعتمد فيها على الاستيراد ، وأمكن التقدم بهذه الصناعة إلى حد لا بأس به . كذلك تقدمت صناعة حفظ المأكولات على مختلف ضروب هذا الحفظ ، وأنشئت معامل لتجفيف البصل والثوم وغيرهما ، وأخرى لعمل المربيات والمحفوظات والشراب .

ونشط التعليم الزراعى بمختلف أنواعه ، فأنشئت كلية الزراعة لجامعة فاروق بالاسكندرية ، والمعهد الزراعى العالى بشبين الكوم ، والمدارس الزراعية المتوسطة ، والمدارس الريفية . وأنشئت دراسات عليا بالكليات الزراعية ، وأقبلت الفتاة المصرية فى السنوات الأخيرة على التعليم الزراعى .

أشواط ثلاثة لنهضتنا :

ويرى من هذا العرض العام أن مصر قد قطعت فى نهضتها الحديثة ثلاثة أشواط متداخلة متلاحقة : فالشوط الأول كان يتجه أكثر ما يتجه إلى الناحية الاقتصادية البحتة ، وكان رائده الأول محمد على الكبير ، رأس العائلة الحاكمة . وعدته الأولى إدخال مزروعات جديدة تجد رواجا فى الأسواق العالمية ، وتوسيع الزراعة بتوفير الرى ، والاشراف على العمليات الزراعية بما يكفل تأديتها على أكمل الوجوه . وقد ازدهرت هذه النهضة فى عهد اسماعيل بما أنتجته من رخاء مالى .

وكان الشوط الثانى يتجه إلى الناحية الفنية وعدته البحوث الفنية والتطبيق العلمى . وقد وضع نواة هذه النهضة السلطان حسين ، البرنس إذ ذاك ، بإنشائه الجمعيات

الزراعية . وكان الرائد الأول لهذه النهضة « فؤاد الأول » الذى يعد بحق رائد النهضة العلمية عامة بمصر ، وأول من عمل على تطبيق نتائج البحوث الفنية فى الزراعة فى مزارعه الخاصة ، ودعا إلى تعميم الأخذ بها .

وقد أخذت هذه النهضة تزدهر فى عهد فاروقنا، وكان من أوضح ثمارها استعمال المخصبات السمادية وتوليد البزور المحسنة ، ومقاومة الآفات الزراعية ، والتقـــدم فى فلاحة البساتين ، وتربية الماشية والدواجن والصناعات الزراعية وغير ذلك .

أما الشوط الثالث فى نهضتنا الزراعية فكان فى الناحية الاجتماعية وقد وضع نواة هذه النهضة أيضاً « فؤاد الأول » بما عمل عليه من تشييد بيوت صحية لفلاحى مزارعه الخاصة ، وعنايته بهم فى ملبسهم وصحتهم وحالتهم الاجتماعية . وكان الرائد الأول لهذه النهضة « فاروق الأول » فجعلت عدتها مشروعات مقاومة الفقر والجهل والمرض ، وما أنشىء من معاهد تعليم وتجمعات زراعية وصحية واجتماعية . وما اتبع فى توزيع اقطاعيات زراعية على المعدمين من أهالى الريف وما هو موضع التشريع والتنفيذ لمشروعات الضمان الاجتماعى وغيره . وقد ظهر لهـــذه النهضة أثر واضح فيما دب من النشاط نحو رفع مجتمع الريف ، وتسابق أصحاب الأراضى إلى تنظيم مزارعهم وتأدية الخدمات العامة لزراعهم .